﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان في يسر مادى أو فى عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هى كل شيء، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالخسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذرأ، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة النساء:

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضا: ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن فى الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهى كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما فى سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا فى سورة الرحمن:

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾

وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق فى ذات الآية :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور فى الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب لجهنم . ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء فى قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا . ولنلفت الأنظار إلى أن فى اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد فى الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكف عن المنهى عنه ، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل ، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى : يأتى لك من يروّى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى ، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زرعته ليقلعنى » . هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك ؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار . لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة ، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة » ، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه ، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ؟ لا ، لأن زوجة فرعون قالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرة عين ، لكنه صار عدواً فى النهاية ، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار ، فى قوله الحق :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة ، والعبادة تقتضى طائعاً وعاصياً ، فالذى يطيع يدخل الجنة ، والذى يعصى يدخل النار ، ولله المثل الأعلى ، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

يعني أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وهم من يعرضون عن منهجنا، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهي أولا :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس

الخمس، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهى من المحسَات، وبعد أن تتكون المحسَات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئا قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة البين وهى التى تميز بها سُمك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربى المعانى عند الإنسان وحين تربى المعانى فى النفس الإنسانية تتكون القضايا التى تستقر فى القلب.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

والفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسّات، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم، فلا يستمعون إلى هدى، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التى تروق لانحرافهم.

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو: ما ذنب الأنعام التى يُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله. هى فقط ترى المرعَى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تتحرك بها، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التى أودعها الله فيه، لا بعقله.

والإنسان منا لا يبتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً. لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات، وفطره الله على غريزة تُسَيّرهُ إلى مقومات صالحة، ومثال ذلك: أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه.

ومثال آخر: نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان، ولابد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها، بجانب أنها وسيلة للنسل. ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدِيّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام فى أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كى يختار به بين البدائل . وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها فى شىء . لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده . وفى آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه .

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية . والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه فى العبادة بالضحك، أما الأحسن منه فى أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك ؟ فرد عليه : لا .

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟ .

قال له : نعم . إنما يُشْتَاقُ إلى غائب .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذَكِّر، أو لعدم وجود مُنْذِر أو مُبَشِّر. بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويَغْفُلون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول: إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلا - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء. فهي قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكنّ ثراءك محدود، وأمَّا غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنى في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه: إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لي، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول: « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول : « قهّار » وأنت مذنب ستخاف ، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله ؛ لأن الإله لابد أن تكون له صفات جمال وصفاتُ جلال ، فصفات الجمال لمن أطاع ، وصفات الجلال لمن عصى . ولذلك لا تأخذ النعّم بمدلولها عندك ، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها .

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟

نقول : نعم ، هي نعمة كبيرة ، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار ، أن النار قوية ، ويعطي لك نعمة العظة والاعتبار . وعظته وتنبيهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى ، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقابل ، فحين يطيعه المؤمنون في الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله ، فلهم ثواب حق الالتزام ، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية ، يتوعدهم سبحانه بالعقاب ، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه ، لأننا قد نعرف مسماه من

القوى القادرة وهى التى تعرف بالعقل، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم. وسبق أن قلت: لنفترض أن أناساً يجلسون فى حجرة ثم طرق الباب. هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب، لكن حين دخلوا فى التصور اختلفوا، فواحد يقول: إن الطارق رجل، فيرد الآخر: لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة، ويقول ثالث: هذه النقرة على الباب تأتى من أعلاه وهى دليل على أن الطارق ضخم، وهو نذير لأنه يطرق بشدة، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق، ولا أحد يعرف اسمه. إذن حين تريد أن تعرف من الطارق، فأنت تسأله من أنت ؟ فيقول لك « اسمه ».

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل. ومن خلق الخلق كله قوى، قادر، حكيم، عليم، لأن عملية الخلق تقتضى كل هذا. أما اسم الله. فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف. إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية، فحين يقول لنا: هذه أسمائى فإننا ندعوه بها، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به، و لذلك يقول تعالى: ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره. فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمى نفسه الرحمن، وبذلك ألحد فى اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته، ومثله فعل غيره، ألم يسموا « اللات » من الله ؟. ألم يسموا « العزّى » من العزيز ؟. ألم يسموا « مناة » من المنان ؟. كل هؤلاء ألحدوا فى أسماء الله التى لا ندعو غيره بها، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله فى دعائه: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى وغمى»(١).

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه، لأنها لا تعرف بالعقل. أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف؛ لأنه تعالى

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى المستدرك.

خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء، ونضع داخله أسلاكا تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار.

وحين نقول هو: «حكيم»، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة، وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه؛ لأنه هو الرب الذى خلق من عَدَم، وأمد من عُدْم. وصان الخلق بقيومية، وحين تأتى لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذى وضعه لنفسه وهو «الله»، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى: أنت تقول: «زيد» فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفقها فى العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذى لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أى شىء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت فى السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء.

قد نقول فلان غنى، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغة فى العلو فيها، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهى فى الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتى بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غنى »، ونقول : « مغنى » فهو غنى فى صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه، ومغنى وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده، وسبحانه حى فى ذاته، ومحيى لغيره، والإحياء صفة فعل فى الغير . ولابد لها من مقابل، فنقول : محيى ومميت . ولم نقل حى ومقابله، إذن فالاسم الذى ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهى التى لا يوجد لها المقابل . ويلحدون فى أسماء الله أى يُميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتى باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يُفهَم منه أى معنىَ على الله. إذن "الإلحاد" يأتى فى ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله، أو يأتى باسم للغير ويطلقه على الله ، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً .

﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أى جارحة ؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، ونعلم أن هناك مايسمى بـ[قول وفعل]، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان؛ والقول عمل اللسان، والاثنان يطلق عليهما عمل ، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى فى سورة الصف :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل ، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل.

وإذا كان لله أسماءٌ كثيرةٌ ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله فى شىء اسماً له ؟ وخصوصاً انه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : "كل الناس" ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب.

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لايخلو من هداة مهديين، لتستمر الأسوة السلوكية فى المجتمع .

والأسوة السلوكية فى المجتمع هى التى تربى عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلى ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنَّه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يُؤَذِّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان فى سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعى للخوض فى سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض فى سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذى لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم فى حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفى الشرك ، وقد يكون العدل فى مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل فى مسألة الحقوق بين الناس.

﴿ وممن خلقنا أمة ﴾

وقوله فى الآية الكريمة : "أمة" يعنى أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر فى الشجاعة ، وثالث فى الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة فى مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام- فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنه جامع لخصال الخير التى لا توجد إلا فى مجتمع واسع ،

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أم الأرض - إذن - هى التى تهدى بالحق ؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى!

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس فى الإلحاد، زاد الله في المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء ؛ ما تحمس للحق أحدٌ، ولا عرف الناسُ ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود ، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله : « وَمِمَّنْ خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » فى الحكم، عدلاً فى القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم، فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولي ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكنْ لله حق فيه، وأنت لك الباقى، حتى يجد الضعيف الذى لا يقدر على حَرَكة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيماني بقوله : إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قُوّتك التى استعملتها فى تحصيل هذا المال إنما هى عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوىٌ قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة فى تلك الآية ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة فى هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(١)

ويخاطب النبى صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله : هذه لكم، أى فى أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهى أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً ؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر " أمة " لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكأن الأمة المحمدية قد وجد فى أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثاني، والطبرى المجلد السادس.

الصالحة للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجىء الشىء بمقابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، والآيات جمع آية، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتهتدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة، وذلك الإحكام المتقن، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد فى الكون؛ لذلك لابد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :